

الحقيقة البراغماتية بين الاعتقاد والعمل (شارل سندرس بورس نموذجاً)

حيرش سمية _ جامعة وهران.

"إن لم نتحول إلى زهاد فكيف
نرسخ الاعتقاد في الفرد فضلاً عن
المجتمع". (ش.س. بورس).⁽¹⁾

الملخص: إن هذا المقال يعالج إشكالية الحقيقة في الفلسفة البراغماتية، لدى رائدها شارل بورس، وللدور الذي لعبته الحقيقة البراغماتية منذ زمن، في دعمها للديمقراطية الأمريكية، و خاصة مفهوم الحرية، برفعها لشعار الفاعلية والأثر كمعيار للحقيقة وللعمل خاصة، وباعتبار هذا الفكر البراغماتي قد نجح أخيراً، في التوفيق و المزاوجة بين الدين و الاعتقاد و بين العمل.

الكلمات المفتاحية: البراغماتية _ شارل بورس، _ الاعتقاد _ اليقين _ الحقيقة _ العمل _ الحرية _ الديمقراطية _ الفاعلية _ الأثر.

اشتهرت الولايات المتحدة الأمريكية، بالفلسفة البراغماتية ، التي يعد "شارل سندرس بورس" "Charles Sanders Peirce" (ت1914) أول رائد لها، فالبراغماتية توصف بأنها "فلسفة الديمقراطية الأمريكية"⁽²⁾، و بأنها فلسفة العصر الذهبي لأمريكا، المتأثرة بالمبادئ السبعة عشر الشهيرة التي تحكم منذ الاستقلال (1770)⁽³⁾، الحياة السياسية و الثقافية و الاقتصادية و الاجتماعية و الدينية الأمريكية.

¹ _ هو المؤسس الأول للمنهج البراغماتي. ولد سنة 1839 بمدينة "كامبريدج" بالولايات المتحدة الأمريكية. تعلم الرياضيات و غيرها من العلوم الأخرى، خاصة التجريبية منها. شغل بعد ذلك العديد من المناصب، الإدارية و الجامعية، خاصة في جامعة "هارفارد و هوبكينغ". أسس النادي الميتافيزيقي" لنقد هذه الأخيرة. كتب العديد من الكتب و المقالات حول مذهبه أو منهجه حول البراغماتية. منها "كيف نجعل أفكارنا واضحة؟" و "تثبيت الاعتقاد"، و "جوهر البراغماتية"... الخ. و قد جمعت أهم أعماله بعد وفاته في ثمانية أجزاء ما بين 1958_1960 تحت عنوان "مجموعة الأوراق (Collected papers)". توفي سنة 1914

² _Deledalle Gérard : La Philosophie Américaine, Ed. L'âge d'homme, Lausanne, 1983,

³ وهي المبادئ التي شكلت منذ سنة 1776 المدخل الرئيسي لوثيقة الاستقلال الأمريكي (The act of indépendance) الدستور الأمريكي الذي تلاه والمثلة في احترام الفردية... والحرية والديمقراطية وحرية الرأي والعقيدة والفكر والعمل و بذلك أكدت كذلك وبالتالي أنها إيديولوجيا وفلسفة النجاح الإنساني اللامحدود... إلا بحدود قدرة الإنسان، نجاح لا يلغي العقل من أجل العقيدة، أو هذه الأخيرة من أجل العقل وهذه المبادئ تتعلق بالمقاربة الأمريكية للإنسان وللطبيعة، أن كل الناس ولدوا سواسية، وأنهم خلقوا منذ الميلاد ومنحوا من طرف الله الذي خلقهم حقوقاً لا يمكن لأحد أن يسلبهم إياها، ومن بين هذه الحقوق حق السعادة، والحياة و الحرية .

Cf. Morton (W) : La pensée sociale en Amérique, trad. M. Levi, PUF, Paris, sd.

كما توصف هذه الفلسفة، بفلسفة النجاح والأثر المتولدين عن العقل وعن التجربة. مما يميلانه من مبادئ خاصة بالنسبة للحرية وللعمل وللمبادرة وللعقيدة، من هنا كان شعار هذه الفلسفة الفاعلية والأثر كمعيارين لكل حقيقة ولكل عمل.

لذلك جاءت البراغماتية البيروسوية معبرة عن الواقع الاجتماعي الخاص بأمريكا، المتعددة الأجناس و العقائد، والثقافات و الحضارات، التي شكلت الأسس الأولى لما يسمى بالعالم الجديد.

لقد جاءت هذه البراغماتية كفلسفة معبرة، وإلى حد كبير ، عن الواقع الاجتماعي والثقافي و الديني الذي بناه أولئك المهاجرين وعن أبعاده الإنسانية منها، والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، والعقائدية والثقافية المتميزة. بذلك كانت البراغماتية أقرب فلسفة إلى المواطن الأمريكي المسكون بمحسب التفوق و النجاح والقوة المادية خاصة.

إن هذه المكانة التي تحتلها البراغماتية في الفكر و في الحياة الأمريكية لا تزال فاعلة، بالرغم من انصراف حتى من الشباب الأمريكي اليوم عنها.

تعرف البراغماتية، بأنها نظرية أمريكية تجريبية في المعرفة، كما تعرف أنها الفلسفة الأولى و الوحيدة، حتى الآن، التي يلعب فيها الفعل و آثاره العملية دورا سياسيا.

ينطلق "شارل بورس" من القول أنه، لكي نمسك بفكرة ما أو شيء ما، فإنه يجب أن نحدد أي آثار عملية يمكن أن تتولد عن مثل تلك الفكرة أو عن ذلك الشيء أو الفعل الذي هو في النهاية مجموع آثاره ونتائجه(1).

فالبراغماتية، منهج و ليس فلسفة، يرى أن حقيقة أي شيء أو فكرة إنما تتمثل في الآثار العملية المتولدة عنه، هي مجموع آثاره ، فالحقيقة تتمثل في النجاح، أو الأثر، الفعلي، العملي، أو المعنوي، الذي تولده فكرة ما أو معرفة ما أو شيء ما، أو يقين ما.

تعني البراغماتية في معناها الأصلي و المشتقة من الكلمة اليونانية "براغما" (Pragma) (2)، شيء أو فعل أو الأثر أو المعنى معنويا كان أو ماديا الذي تولده أو تتركه الفكرة فور تحولها إلى عادة أو سلوك بمجرد حصولها على الاعتقاد المفضية إلى ترسيخه، فكل ما يقدم أو يقال في الأخير بالنسبة لهذا المذهب البراغماتي من حقائق ، يجب أن تقود إلى تجربة ذات نتائج عملية وإلا فليس له معنى "فكرتي عن شيء هي فكرتي عن آثاره المحسوسة". البراغماتية ترى أن كل اعتقاد يهدف إلى الحقيقة ، وأن الاعتقاد بالتالي إنما هو العمل وفقا لتلك الحقيقة .

بذلك ربط بورس، الحقيقة المتولدة عن الاعتقاد، بالفاعلية و الأثر بالعملي الذي تولده من خلال السلوك، يجعل من الفاعلية و الأثر بدلا للحقيقة ، و يحول بالتالي هذه الأخير إلى أداة و مفسرة (للفاعلية).. لأن الحقيقة

¹ _Ch.S.Peirce :Collected Papers, diversés éditions, vol.1-8,Cambridge, (Mass), USA,1958 ,P120

² _ Carl. Hausman : C S Peirce evolutionary philosophy, Ed University Press Cambridge, USA ,1997 , P29.

لكي تكون مقبولة، يجب أن تؤكد أولا و عمليا مثل تلك الفاعلية و الأثر ، اللتين نعلم أنها لا تكتسبها عن طريق الحدس أو العقل بل عن طريق المعنى الموضوعي الذي تؤكدته التجربة (L'expérience) العملية اتجاه ذلك الواقع.

فالاعتقاد في الفلسفة الأمريكية، لا يعني الوفاء للحقيقة و الالتزام بها ، وتوجيه الحياة كلها في ضوء تلك الحقيقة، بل إنه يعني الإيمان بقدرة العقل على التكيف العملي مع الواقع الذي نصنعه و نتكلم بدلا عنه. هكذا سيأخذ "بورس" عن " باركلي" (J.Berkeley) (ت 1753)، تلك الحقيقة التي تقول، أن الواقع، ليس فقط، هو كل ما نفكر و لكنه ذلك الذي لا يتأثر بمثل ذلك التفكير من طرفنا فيه، بل هو أيضا كل ما لا نفكر فيه. كما سيأخذ عن "السفسطائيين" قولهم أن حقائق الأشياء تابعة للاعتقادات، و أنه لا وجود لمقياس كلي للحقيقة ، ولا وجود لحقيقة موضوعية ، يمكن الرجوع إليها، فالحقيقة مما رأوا مرتبطة بنا و لا وجود لها بالتالي خارجنا. كما سيؤكد ذلك بورس و غيره من رموز البراغماتية .

من هنا الفرق بين ادعاء أو توهم الاعتقاد، والافتناع والوصول إلى الحقيقة و من الاعتقاد الحقيقي الذي يظل الفعل المجسد له المعيار الأول لصدقه ولصحته. لأن كل معرفة لا تخرج عن دائرة الآراء، و الأفكار التي نكونها، أو نستخلصها، انطلاقا، من وعينا بذاتنا أولا، و بالواقع المتواجدين فيه بعد ذلك، و ذلك عن طريق كل من الحس (sens) والإحساس (sensation) و الحس المشترك (commun sens)، فإنها أولا و قبل كل شيء أفكار هادفة إلى التعامل العملي مع ذلك الواقع.

لذلك كانت البراغماتية البورسوية خاصة أساسا منهجا أساسه الأول المعنى و ليس فقط العمل أو الفاعلية (1).

ذلك يعني أن الحقيقة ليست تأمل ونظر، بل إنها قبل كل شيء نشاط وعمل واهدافة أساسا إلى تكيف سلوكنا باستمرار مع الواقع الذي نصنعه من خلال توليدنا لعادات ذهنية ملائمة له واعتقادات متجددة أثبتت التجربة فاعليتها إلى تكوين عادة و استعدادات للفعل .

الاعتقاد ضروري للإنسان، فإن أحدا لا يستطيع أن يجح على الشك أو الإنكار التام، بل لابد في لحظة من لحظات حياته أن يقلع عن الشك ، لكي يؤمن بحقيقة أو حقائق قام البرهان عمليا على صحتها في نظره، ليحل الإيمان أو الاعتقاد محل الشك، نقيض اليقين الذي هو حال العقل المؤمن بامتلاك الحقيقة المطابقة للواقع. هذا الموقف هو الذي جاء به الإسلام بدوره وذلك من خلال ربطه بين الاعتقاد وبين الفعل، بين الإيمان وبين العمل.

لكل ذلك كانت الحقيقة موضوع الاعتقاد عند البراغماتية البيروسوية هي الفعل والفاعلية، خاصة بعد ربط الحقيقة بأثرها العملي و الملموس في الواقع فالإيمان بحقيقة نهاية عقيدة لا تعرفها البراغماتية، و أن

¹ Gérard Delleale :Ecrit sur Le Signe , Editions Le Seuil , Paris , 1968, P66

مدلول الفكرة، أيا كان موضوعها، هو نتائجها الفعلية التي تؤدي إليها. أما الشك فهو التردد والتشتت واليأس ، أو هو الضعف الذي ينشأ عن فقدان الشعور الداخلي بالحقيقة .

بذلك تقيم البراغماتية حاجزا متجددا بين حقائقها ، و بين الدوغمائية من جهة، و بين ادعاء اليقين و الدقة و الكونية المطلقة ، و هي الصفات التي يعترف "بورس" أنه يستحيل علي العقل ادعاء الوصول إليها. فكل معارفنا تظل تسبح في اللاوثوقية (الفيابيليزم)، كما يقول بورس والغموض نظرا لامكانية نفيها مستقبلا⁽¹⁾.

ولأن الشك كذلك فإن حله الحقيقي و الموضوعي لا يكون في البداية عن طريق الاعتقاد، الذي يعني التسليم المبدئي باقتناع العقل بصحة الأشياء كما يتصورها، بل عن طريق الحقيقة المؤدية إلى كل اعتقاد، وذلك لسبب بسيط وهو أنه ليس صحيحا أن كل ما نعتقده هو حقيقي ، فقد نعتقد فيما هو خطأ كما قد نعتقد فيما هو صواب ، و ذلك ما تؤكد بعض الاعتقادات الخاطئة، ولأن النتيجة الطبيعية للاعتقاد ، المتولد عن الحقيقة الذاتية و الموضوعية علي حد سواء هي اليقين ، الحل الوحيد للشك و لانعدام التوازن النفسي و العقلي المتولد عنه⁽²⁾.

و هذا الاعتقاد الجديد العملي و الصحيح حول تفسير هذه الفكرة، أو هذا الشيء المدرك، إنما هو كذلك، لأنه يدفني إلي السلوك العملي وفقه وصولا بالتالي إلي تأكيد صحة ذلك لأن الفكر هو السلوك ومهمته هي توليد هذا الأخير .

فمثلا حينما أري، لأول مرة شيئا خشبيا ذو شكل معين، فإني أعتقد بادئ ذي بدء، و من خلال التجريد (L'abstraction) و الاستدلال (L'inférence) بأنه شيء يستعمل للجلوس عليه .. أي أنه كرسي

غير أن عدم التأكد التام من صحة مثل ذلك الاعتقاد، حول ما أسميه بالكرسي ، لا يلبث أن يشير في نوعا من القلق و من عدم الارتياح النفسي لينتهي بي إلي فقدان لتوازي المعنوي و الجسدي و ذلك ما يسميه "بورس" و غيره بالشك البراغماتي ، فإن مثلا حينما رأيت مثل ذلك المدرك ، الذي سبقت الإشارة إليه ، (الكرسي) و اعتقدت أنه كرسي ، فإني لا أستطيع أن أجزم بصحة اعتقادي هذا إلا من خلال سلوكي العملي وفقه ، أي من خلال الجلوس المتكرر فوق نفس الكرسي.

فالتجربة نتيجة أساسية للفكر ، ولا يمكن تصور حياة أو فكر بدونها، ففكرتي عن حقيقة شيء ما، هي فكرتي عن الآثار الحسية معنوية كانت أو مادية التي يولدها ذلك الشيء .

¹ حيرش سمية، البراغماتية عند شارل سندررس بورس، مجلة لوغوس، العدد الأول، دار كنوز، الجزائر ، 2011، ص ص 50_68.

² C.Tiercelin : Le doute en question. Parades pragmatistes au défi sceptique, Edit L'Éclat Paris, 2005,p63

فلاعتقاد الصحيح، فيما يري "بورس"، هو ذلك الذي يدفع بصاحبه إلى سلوك عملي يتماشى و موضوع اعتقاده، سلوك لا يلبث أن يتحول بالتالي بحكم التكرار إلى عادة، أي إلى استعداد مستمر لسلوكه العملي و في ظروف معينة وفقا للاعتقاد الذي يعتبر مثل تلك العادة ثمرته الأساسية.

فإن معيار الحقيقة عند "بورس" هو الفاعلية و ليس مجرد الوضوح و التميز كما هو الحال عند "ديكارت" إنها تؤدي لدي "بورس" إلى فلسفة للمعنى (sémiotique)⁽¹⁾، المستخلصة من التجربة، معنوية كانت أو مادية و المؤدية إلى المعنى (Le sens) الذي يعد معيار كل معرفة و دليل صدقها و حركيتها وهو المعنى الذي علينا تحديده و ليس إضفائه علي الواقع و معطياته المتواجدة سلفا ليتحول تعامله معها، و مع الواقع المجسدة له إلى تعامل إيجابي و فعال .

و حين نحاول أخيرا الوقوف علي المفهوم البورسوي خاصة، والبراغماتي عامة لكل من الحقيقة، ومن الشك والاعتقاد المرتبطين بها، فإننا سنري أن الحقيقة تعني بالنسبة لهذا المذهب الفلسفي، ولمختلف رواه ورموزه الفكرة التي نكوها عمليا وتحييا عن الأشياء نظرا إلى أنه لا وجود لأي شيء بالنسبة لهذا المذهب، إلا من خلال الإنسان وبالنسبة إليه، كما سبق أن أكد ذلك بروتاغوراس.

كما سيؤكد ذلك بورس و غيره من رموز البراغماتية . بمعنى أن كل فرد محق في أن يجعل نفسه مقياسا للحقيقة. ولكن هذا لا ينفي أن البراغماتية تظل فلسفة سوفسطائية، "وأنا وحيدة" (Solipsiste)... تحصر الحقيقة لا في الموضوعية، بل في الذاتية وفي الرغبة الفردية التي لا تشكل معيارا أو طريقا لكل الناس نحوها. أنها لا تفصل بين النظر والعمل، بين الرغبة وبين الحقيقة، أو ما تري أنه كذلك⁽²⁾.

كما أنها لا تنفي الدين، أو تضاده كما أنها لا تلتزم به كثيرا وهذا طبيعي لأن الدين عند البراغماتية قضية فردية بالنسبة لفرد حر لا تحد حريته سوي حرية الآخر أو ضميره بعد ذلك، إن تحرك مثل هذا الضمير .

و ذلك ما فعله "بورس" كذلك حين طابق بين الفكر و بين العالم و جعل قوانين الفكر هي ذاتها قوانين العالم أو الواقع، متناسيا أن الواقع لا يعرف كما قال لا يعرف إلا بالمعتقد من جهة، و قوله من جهة أخرى، إن صحة معتقداتنا إنما تتم من خلال مقارنتها بالواقع؟ فكيف نقارن صحة معتقداتنا بواقع نحن لم نعرفه بعد؟ فلا يجوز أن نتخذه بالتالي معيارا للمعرفة، و إن كنا نعرف ذلك الواقع سلفا، فما الفائدة من التأكد من معتقداتنا حوله.

وذلك انطلاقا وكما ترى البراغماتية أن فكرتنا عن شيء ما هي إلا فكرتنا عن آثاره المحسوسة ، فصفة المعرفة ليست الإدراك أو مدى مطابقة العقل للواقع ، بل هي نشاط وعمل و الحقيقة ليست مجرد انعكاس لجوهر الشيء، و تجسيدا لماهيته الداخلية، مثلما فعل "كانط" (E.Kant) (ت 1804م) عندما ربط، الحقيقة بظواهر

¹أنظر . حيرش سمية، شارل سندرس بورس بين العقل و التصوف، مجلة الحدائة، العدد 139_140، دار الحدائة، بيروت، 2011، ص ص151،

²أنظر: د.نمير العاني:حول مفهوم الحقيقة في الفلسفة البراغماتية، مجلة الطريق، العدد السادس، بيروت، 1980.

الأشياء (Phénomènes) لا بكونها (Noumènes)، واعتبارها أن الحقيقة ليست معطي جاهزا، لا في الواقع، ولا في الفكر، وإنما هي تفاعل ديكالكتيكي بين معطيات التجربة والمفاهيم العقلية. ولأنها كذلك فإنها ستظل ومهما بلغت درجة معرفتنا، نسبية ما دمنا نجعل حقيقة النومين (Noumènes)، أو الشيء في ذاته، شأنها في ذلك شأن كل القضايا الميتافيزيقية الأخرى (الروح، الوجود.. الخ).

بل إن الحقيقة لا تعدو كونها حزمة من الإحساسات التي تبقى واقعا ذاتيا محضا لا يمت بأية صلة إلى طبيعة الأشياء الذاتية، فالفرد لا يتعامل من خلال نشاطه و فاعليته إلا مع إحساساته و تصوراتها، إلا مع حاجاته الضيقة و المحدودة. فالحقيقة من المنظور البراغماتي لا تخرج عن كونها ذات طابع "سوليبسيمي" أنا وحدية، ليست سوى اعتقاد فردي أو جماعي " أن تعتقد هو أن تعمل وفقا لاعتقادك" (1).

الاعتقاد الذي لا يمت بأية صلة إلى العلم و المعرفة، الاعتقاد الذي لا يمتلك أي محك أو معيار له سوى نفعيته، أي نجاحه العملي (نجاح النتائج التي تنتج عن العمل بموجبه)، مما يدفعنا إلى التمسك به وترسيخه بفعل الإيمان و الوثوق به عن طريق العمل، بما يولده مثل هذا الاعتقاد أو الفكرة من أثر مادي أو معنوي على سلوكنا..

بذلك يجعل بورس من الفعل وحده قاعدة أساسية وجوهرية لنشاط الفكر محولا بالتالي كل اعتقاداتنا وأحكامنا و تصوراتنا عن هذا العالم إلى مجرد أدوات عملية للتكيف الإيجابي والفعال مع هذا الواقع التي تصنعه، فدور الفكر هو توليد عادات ذهنية هي اعتقادات عملية تدفعنا كل مرة للتعامل الفعال و الايجابي مع الواقع. و لأن الشك البورسوي (نسبة إلي بورس)، يجعل بالتالي من الاعتقاد و من الحقيقة و المعرفة المتولدين عنه ظواهر غير ثابتة أو مطلقة، بل مؤقتة و نسبية، فقد ظل هذا المفهوم مقرونا عمليا بالحرية.

فقد أشار شارل بورس رائد البراغماتية، للدور الذي لعبه الفكر البراغماتي أو الحقيقة البراغماتية منذ زمن، في دعمها للديمقراطية الأمريكية، و خاصة لمفهوم الحرية حتى لا يفرغ من مضمونه، برفعها لشعار الفاعلية والأثر كمعيار للحقيقة وللعمل خاصة، وباعتبار هذا الفكر البراغماتي قد نجح أخيرا، في التوفيق و المزاوجة بين الدين و بين العمل.

من هنا تلتقي البراغماتية بالإسلام، وفي التعبير عنها عند "أبو حامد الغزالي" الذي سبق "بورس" في مفهومه للحقيقة باعتبارها فعل و فاعلية.

هذا الموقف هو الذي جاء به الإسلام بدوره وذلك من خلال ربطه بين الاعتقاد وبين الفعل، بين الإيمان وبين العمل، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (2).

¹أنظر: د.نمير العاني:حول مفهوم الحقيقة في الفلسفة البراغماتية.

²لقرآن الكريم، سورة الصف، الآية 2.

كما أشار " شارل بورس " في مقاله "تثبيت الاعتقاد"، و " كيف نجعل أفكارنا واضحة"، إلى تلك المقاربات الصوفية والتجريبية الذي سبق "الغزالي" فيها "شارل بورس" ، ممن اتخذوا الشك طريقا للاعتقاد الديني وللإيمان وللعمل، ومن خلال الدين و أن الاعتقاد في الدين، أيا كان، يجب أن يصل عمليا ، بصاحبه إلى الله من خلال تأثيره الإيجابي في سلوك الفرد(1).

"فالمعرفة دون العمل ضرب من العبث والجنون، كما يقول "أبو حامد الغزالي"، والفعل دون المعرفة يبقى مستحيلا" وهي مقولته التي تعني بأن الاعتقاد في الدين يدفع إلى العمل، ولأن البراغماتية الفلسفة الوحيدة التي استطاعت أن توفق بين الإيمان (الديني) خاصة وبين العمل، حيث عاد " بورس "إلى الدين وإلى التصوف ليقول أن الزهد هو الذي يؤدي بنا إلى الاعتقاد و إلى ترسيخ الإيمان والعمل، فلا بد أن ننتظر دائما قبل أن نعتقد حتى نجد ما يبرر حسيا وعمليا مثل هذا الاعتقاد، وإذا لم يكن لمثل هذه الأدلة من وجود، فلا نمتلك مبررا سوى العزوف عن ما يمليه علينا هذا الاعتقاد من سلوك . ليس لك أن تعتقد في شيء من غير أن يكون لهذا الشيء ما يعبر عنه سلوكك عمليا.

فالبراغماتية ترى أن حقيقة أي شيء هي مجموع آثاره وأنها كامنة في التجربة الإنسانية و أنها الأثر التي تحدثه الفكرة، فور تحولها إلى عادة و بمجرد حصولها على الاعتقاد المفضية إلى ترسيخه، لأن الحقيقة تتمثل في الأثر والنجاح التي تولده فكرة ما أو معرفة ما، لأن الاعتقاد هو ما يبدأ الإنسان عنده بالفعل المجسد أو الاستعداد لمثل ذلك الفعل ، فالفرد لا يؤمن بفكرة ولا يعتقد بصحتها إلا بقدر استعداده للنشاط وللعمل وفقها(2).

إن ربط بورس للحقيقة المتولدة عن الشك و عن الاعتقاد بالفاعلية... و الأثر بالعملي الذي نولده من خلال السلوك يجعل من الفاعلية و الأثر دليلا لمقياس صدق و قوة الإيمان بدلا للحقيقة.

ضمن هذا المنظور يرى " بورس و غيره من رواد البراغماتية " ، يرى " بورس " أن فكرة مجردة مثل فكرة الله و الإيمان به تتحول إلى فكرة ذات معني عملي ، إذا كان التمسك بها يؤدي إلى نتائج عملية ايجابية و جديدة في سلوكي".

إن مثل هذا المفهوم المزدوج، الحسي والحدسي، والعقلي والروحي، الواقعي والمثالي، النظري والتجربي للاعتقاد وللحقيقة المتولدين عنه الذي وصل " بورس " إليهما بدوره مثلما وصل إليها الغزالي من قبل وبمثل هذا الإستلهام للحدس عند الغزالي، عمل بورس و بالتالي مثلما فعل الغزالي على الخروج بالإنسان و بوعيه من حالة الشك واللايقين المفرغين من كل محتوى و على الوصول به إلى الاعتقاد، الذي لا تصور لأي نشاط عملي للإنسان في حياته بدونه.

¹Hammana Boukhari : La Pensée de Ch. S. Peirce dans le monde arabe d'aujourd'hui communication donnée, le 07 Septembre 1989 à l'université de Harvard, (USA), et publiée par University of Texas., et par la Revue Algérienne de Philosophie, Institut de philosophie, Université d'Oran, Algérie, 1997, no, 1

²P. Gauchotte: Le pragmatisme ,Que sais Je ? PUF ,Paris, 1992,p,28

هكذا جاءت البراغماتية البورسوية بتلك الازدواجية، العقلانية والصوفية، التجريبية والروحية، الواقعية والمثالية، وهي الازدواجية التي كان "بورس" أول من أكد ضرورتها حين قال "إن لم نتحول إلى زهاد... فكيف نرسخ الاعتقاد، لدي فرد واحد، فضلا عن كل المجتمع" (1).

وبذلك أيضا كانت البراغماتية، خاصة، و البراغماتية البورساوية عامة، ومن خلال امتدادها الفلسفية والنفسية والتربوية والروحية والسياسية الح، الفلسفة الأمريكية الأولى والوحيدة التي نجحت في التوفيق، أو في المزوجة بين النزعات المادية، ممثلة أساسا في الرأسمالية من جهة وبين التصور الديني للعالم وللكون، البروتستانتية، سليلة الليبرالية، من جهة أخرى.

لهذا ظلت البراغماتية، ومنذ نهايات القرن العشرين مقرونة لدى العديد من الأمريكيين ومن غير الأمريكيين، و من بينهم العرب، بالنجاح المادي الذي حققته أمريكا في مختلف الميادين . هذا بالإضافة إلى أنها كانت الفلسفة الوحيدة المتفائلة بالإنسان، والمعبرة عن النجاح الإنساني اللامحدود، نجاح لا يلغي العقل من أجل العقيدة ولا هذه الأخيرة من أجل العقل، بل يوازن بينهما باستمرار.

بذلك تكون البراغماتية، من الفلسفات الأوائل التي ربطت الإيمان الفردي بالعمل، كما ربطت الديمقراطية الأمريكية والحقيقة بالفاعلية و ربما أيضا القول بالعمل . باعتبار أن البراغماتية، هي الفلسفة الوحيدة، التي حتى اليوم ما زال يلعب فيها الفعل و الأثر، دورا سياسيا و اقتصاديا وتقنيا، فالبراغماتية دعمت الديمقراطية، وحمتها من الفوضى ومن الكلام الفاقد لأي مصداقية أو مضمون ، كما أنها قد أسهمت في توطيد الديمقراطية الفاعلة ، وفتحت من خلالها كل الأبواب أمام حرية التعبير و التفكير والعمل و العقيدة أو الاعتقاد و القول والفعل، وهي الحرية التي لا تقيم مثل صاحبها إلا بأثرها العملي في الواقع ، هذا بالإضافة إلى أنها كانت من الفلسفات المتفائلة بالإنسان.

نشير هنا إلى الدور الذي لعبته البروتستانتية (Le protestantisme)، ممثلة خاصة في الكالفينية واللوثرية (Le Calvinisme , Luther) من خلال إضفاء البعد الديني علي البراغماتية.

نلاحظ أن هذا المفهوم العقلاني و الفاعل للحقيقة ، و للشك المرتبط بها ، هو الذي ساد في العالم الغربي المتقدم، منذ العصور الحديثة، و هو الذي يسود، نأمل أن يسود من جديد في العالم العربي و الإسلامي ليتحول عمليا، مثلما هو في البلدان المتقدمة، المدخل الإجباري الأول إلى الحقيقة أيا كانت طبيعة هذه الحقيقة دينية كانت، أو فلسفية، أو علمية، أو اجتماعية.

إن تبني الولايات المتحدة الأمريكية والغرب للبراغماتية كان ولا يزال وراء العديد من أوجه التقدم الفكري والمادي الذي يعرفونه منذ قرون، مثلما يمكن أن تكون وراء التقدم الذي ينشده العالم العربي والإسلامي،

¹Ludwig Marcuse: *La Philosophie américaine*, Gallimard ,Paris, 1967,p,64

وغيرهم من الشعوب، لتمكين العرب، خاصة من فهمها و من الاستفادة الحقيقية من ايجابياتها وصولا إلى التكيف الأفضل مع الواقع العالمي التي تصنعه البراغماتية اليوم.

فهل يمكن زرع مثل هذا النموذج، بنفس النجاح، أو بنجاح مقارب، خارج الولايات المتحدة الأمريكية؟ وصولا إلى فهم أفضل للتقدم الأمريكي وإلي الوقوف علي ما أمكن من شروط لتوظيفها داخل وطننا العربي، بما يتماشى و عقيدته و تراثه، من جهة و التحديات التي لا تزال تجهض طموحاته في مثل ذلك التقدم و ذلك التطور المنشودين من جهة أخرى. للخروج من تخلفه و لتحقيق تقدم يعتمد علي الفاعلية والتقنية و لكنه لا ينسلخ في نفس الوقت ومثلما فعلت أمريكا عن الدين، الذي لا حياة و كما يلاحظ ابن خلدون بدونه. فما الدور الذي، لعبه الدين، ولا يزال يلعبه، في كل ذلك. وهل يمكن تفعيل مثل هذه التجربة الأمريكية؟ كيف؟
